﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[الحج: 34 - 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

التَّقرُّبُ إلى اللهِ بالذَّبْحِ ليسَ خاصًّا بهذهِ الأمَّةِ

لمّا ذَكَرَ سبحانَهُ وتعالى أنَّ تعظيمَ الشَّعائرِ مِنْ أعظمِ دعائمِ التَّقوى وأنَّ مَحِلَّ نَحْرِها هو البيتُ العتيقُ؛ أتبعَ ذلكَ ببيانِ أَنَّ الذَّبْحَ وإراقةَ الدِّماءِ على وجهِ التَّقرُّبِ إليهِ تعالى ليسَ خاصًّا بهذهِ الأمَّةِ، بل لكلِّ أُمَّةٍ مناسكُ وذبائحُ تُذكِّرُ باللهِ عندَ ذَبْحِها والشُّكرِ لهُ على توفيقِهِ لإقامةِ هذهِ الشَّعائرِ، فالإلهُ واحدٌ، والتَّكاليفُ تختلفُ باختلافِ الأزمنةِ والأمكنةِ والمصالحِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنسَكًا﴾: (نسك) أصلٌ يدلُّ على عبادةٍ وتقرُّبٍ إلى اللهِ تعالى[2]، والنّاسكُ: العابدُ، واختُصَّ بأعمالِ الحجِّ، والمناسكُ: مواقفُ النُّسُكِ وأعمالُها، والنَّسيكةُ: الذَّبيحةُ، قالَ تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: 196][3]، والمنسَك على قراءة فتح السّين في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ مصدرُ النَّسْك، أي: المُتعبَّد والقربان، وعلى قراءة كسر السّين (المَنسِك) موضعُ النَّسْك ومكانه[4].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 58، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 112.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نسك).
(3) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نسك).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 24.

2) ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾: الأصل (خبت) يدلّ على انخفاض باتِّساعٍ واستقرارٍ[1]، ومِنْ ذلكَ: الخَبْتُ، وهو المُطمئِنُّ مِنَ الأرضِ[2]، ويُقالُ: أخبتَ الرَّجلُ؛ إذا قصدَ الخَبْتَ، أو نزلَهُ، نحو: أسهلَ وأنجدَ، ثمَّ استُعمِلَ الإخباتُ استعمالَ اللّينِ والتَّواضعِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 23][3]، وقالَ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾، أي: المتواضعينَ الخاشعينَ، وفي قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الحجّ: 54]، أي: فتلينَ لهُ قلوبُهم، وتخشعَ[4].

3) ﴿وَجِلَتۡ﴾: الوَجَلُ: الخوفُ[5]، وقيلَ: الخوفُ الشَّديدُ[6]، وقيلَ: استشعارُ الخوفِ، يُقالُ: وجِلَ يَوْجَلُ وجَلًا، فهو وجِلٌ، قالَ سبحانَهُ وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2][7]، أيْ: خافَتْ[8].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

ذِكْـــرُ صـفـاتِ المُخْبِتينَ

يُخبِرُ اللّهُ سبحانَهُ وتعالى عن سنَّةِ التَّقرُّبِ إليهِ بالذَّبْحِ الَّتي أجْراها في الأُمَمِ المؤمنةِ، فيقولُ: ولكلِّ أمَّةٍ سالفةٍ مِنْ أهلِ الإيمانِ باللّهِ شَرَعْنا التَّقرُّبَ بالذَّبْحِ؛ ليذكُروا بذلكَ اسمَ اللّهِ على ما رزقَهم مِنْ بهيمةِ الأنعامِ الَّتي هي الغَنَمُ والبَقَرُ والإبلُ، فاجتَنِبوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ، واجتَنِبوا قولَ الزّورِ، فإلهُكم إلهٌ واحدٌ لا شريكَ لهُ، فإيّاهُ فاعبُدوا، ولهُ أخلِصوا، وانقادوا، وبشِّرْ - يا محمّد ﷺ - الخاضعينَ للّهِ بالطّاعةِ، المُذعِنينَ لهُ بالعُبوديَّةِ المتواضعينَ الَّذينَ تخشعُ قُلوبُهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خبت).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خبت).
(3) الرَّاغب، المُفردات: (خبت)، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خبت).
(4) الرَّاغب، المُفردات: (خبت)، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خبت).
(5) الخليل، العين: (وجل)، والجوهريّ، الصّحاح: (وجل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 261.
(7) الرَّاغب، المُفردات: (وجل).
(8) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وجل).

لذِكْرِ اللّهِ، وتخضعُ من خشيتِهِ، والصّابرينَ على ما أصابَهم مِنْ شدَّةٍ في أمرِ اللّهِ، ونالَهم مِنْ مكروهٍ في جَنْبِهِ وعلى مصائبِ الدُّنيا، والمُقيمي الصَّلاةِ، وممّا رزَقْناهم مِنَ الأموالِ يُنفِقونَ في الواجبِ عليهِم إنفاقُها فيهِ، في زكاةٍ ونَفَقةِ عيالٍ، وفي سبيلِ اللّهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قولِهِ ﴿وَلِكُلِّ﴾:

قيلَ: إنَّ جملةَ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[2]، وقيلَ: الجملةُ عطفٌ على قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أو على قولِهِ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[3]، وقيلَ: عطفٌ على محذوفٍ جامعٍ للمعاني السّابقة؛ لأنَّهُ لمّا كانَ التَّقديرُ: (جعلَ لكُم سبحانَهُ هذهِ الأشياءَ مناسكَ)؛ عُطِفَ عليهِ قولُهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾[4].

اختصاص هذه الأُمّـة بمَنْسكٍ ليس ببدْعٍ

معنى اللّامِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ﴾:

اللّامُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وهي تُفيدُ أنَّهُ سبحانَهُ وتعالى قد جعلَ لكلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ السّابقةِ المُؤمنةِ مَنْسَكًا، خصَّها بهِ، وجعلَهُ بمنزلةِ الشَّيءِ المملوكِ لها.

جعلَ لكلِّ أمةٍ مَنْسَكًا خاصًّا بها وجعلَهُ بمنزلةِ الشَّيءِ المملوكِ لها

دلالةُ استعمالِ (كلٍّ) في قولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ﴾:

يدلُّ لفظُ العُموم (كلٌّ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ على أنَّ المَنْسَكَ ليسَ خاصًّا بهذهِ الأُمَّةِ، بل هو مُشتركٌ بينَ الأُمَمِ المؤمنةِ[5]، والمعنى: (شَرَعْنا لكلِّ أمَّةٍ من الأممِ السّالفةِ مِنْ

الخارجُ عن مَنْسك هذه الأُمَّة خارجٌ عن سِلكِ جميعِ الأمم المؤمنة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) اطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 315.
(4) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 46.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121، والنّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 440، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 424.

عهدِ إبراهيمَ ﷺ إلى مَنْ بعدَهُ مَنْسَكًا)[1]، والكلامُ يُفيدُ الاقتداءَ ببقيَّةِ الأُمَمِ أهلِ الدّينِ الحقِّ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾:

التَّقديمُ للتَّخصيصِ والاهتمام

تقديمُ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ على الفعلِ ﴿جَعَلْنَا﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ للتَّخصيصِ، أيْ: لكلِّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ المؤمنةِ جعلْنا مَنْسَكًا، لا لبعضِ الأُمَمِ دونَ بعضٍ[3]، ويُفيدُ التَّقديمُ أيضًا الاهتمامَ بكونِ جعلِ المَنْسَكِ لكلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ.

توجيهُ اختيارِ لفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾:

الإشارةُ إلى معنى الاجتماعِ على مذهبٍ واحدٍ

الأُمَّةُ في الأصلِ: القومُ المجتمعونَ على مذهبٍ واحدٍ[4]، وليسَ المُرادُ بها في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ العُمومَ، بل المرادُ بها مَنْ لهُم مِلَّةٌ وشَرْعٌ، وإنْ نُسِخَ دونَ المشركينَ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾[5]، والمعنى: (ولكلِّ جماعةٍ مؤمنةٍ قبلَكم جعَلْنا مَنْسَكًا)[6]، ففي التَّعبيرِ بلفظِ الأُمَّةِ هنا إشارةٌ إلى معنى الاجتماعِ على المُعتقَدِ الواحدِ، فهذا اللَّفظ هو الأشبهُ بسياقِ المَنْسكِ الَّذي يؤمُّهُم، ويجعلهم أُمَّة يؤلِّفُ بينهم، وهذا ترغيبٌ لطيفٌ للمشركين في التَّوحيدِ بترغيبهم في اتِّخاذِ هذا المَنْسكِ، واعتقادِه، والعملِ به، ولو عُبِّر بلفظٍ آخر من أسرته كالجماعة والقوم ونحوهما؛ لذهب رونقُ المعنى، وإن صحَّ المعنى العقليُّ على الجملة.

نكتةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ في ﴿جَعَلْنَا﴾:

تعظيمُ الجَعْلِ والتَّشنيعُ على المخالفينَ لِما شرعَهُ اللهُ

أُسنِدَ فعلُ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلِكُلِّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 225.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 58، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 535.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 311.
(6) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 440.

أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ لتعظيم شأنِ جَعْلِ المَنْسَكِ، أيْ: جعَلْنا بعظَمتِنا الَّتي لا يصحُّ أنْ تُخالَفَ[1] - وعظمتُه تعالى تظهر ضمن ما تظهر فيه في كون المَنْسك مِن شأنه تأليفُ قلوب العباد، وجمعهم على شيءٍ واحدٍ - وللرَّدِّ على المشركينَ المُخالفينَ باتِّخاذِ مناسكَ لم يَشْرَعْها اللّهُ تعالى؛ إذ المُرادُ أنَّ المسلمينَ لهم مَنْسَكٌ واحدٌ جعلَهُ اللّهُ تعالى، وهو البيتُ العتيقُ، وفي ذلكَ تقبيحٌ لفعلِ المشركينَ؛ إذ جعَلوا لأصنامِهم مناسكَ تُشابِهُ مناسكَ الحجِّ، وجعَلوا لها مواقيتَ ومَذابحَ مِثلَ الغبغبِ مَنْحَرِ العُزَّى، فذكَّرهم اللّهُ ﷻ بأنَّهُ ما جعلَ لكلِّ أمَّةٍ إلّا مَنْسَكًا واحدًا للقُرْبانِ إليهِ سبحانَهُ، فلا يَحِقُّ أنْ يُجعَلَ لغيرِ اللّهِ مَنْسَكٌ، فلا تتعدَّدُ المناسكُ.

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾:

منسكُ كلِّ أمَّةٍ مؤمنةٍ واحدٌ لا يتعدَّد وحقُّه التَّعظيم لما يُجريه فيه

لمّا كانَ مِنْ مقاصدِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ الرَّدُّ على المشركينَ الَّذينَ اتَّخَذوا مناسكَ ما أنزلَ اللّهُ بها مِنْ سُلْطانٍ؛ دلَّ ذلكَ على أنَّ التَّنكيرَ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿مَنسَكًا﴾ للإفرادِ، أيْ: ولكلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المؤمنةِ جعَلْنا مَنْسَكًا واحدًا لا مُتعدِّدًا[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ المكانَ الَّذي يُتقرَّبُ فيهِ بالذَّبْحِ للّهِ تعالى يكونُ عظيمًا بعظَمةِ ما يَجْري فيهِ مِنْ أفعالِ الذَّبْحِ والذِّكرِ والتَّكبيرِ ونحوِ ذلكَ ممّا لا يكونُ لغيرِ الواحدِ الأحدِ جلَّ شأنُهُ، ثم لجمعه النّاس على مُعتقدٍ واحدٍ كان عظيمًا أيضًا، والإفرادُ والتَّعظيم لا يتعاندان.

توجيهُ القراءتَيْنِ في قولِهِ: ﴿مَنسَكًا﴾:

مناسكُ الأمم تلتقي وتفترق

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿مَنسِكًا﴾ بكسرِ السّينِ، وقرأ الباقونَ بفتحِها ﴿مَنسَكًا﴾[3]، فقيلَ: هما بمعنًى واحدٍ، والمُرادُ: مكانُ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/ 326.

الذَّبح أو المصدرُ، وقيلَ: المكسورُ مكانٌ، والمفتوحُ مصدرٌ[1]، ولعلَّ الاختلافَ في حركة بناء السّين الَّتي هي عينُ الفعل: (نسك) يلفتُ إلى حصولِ التَّغايُرِ الشَّكليِّ بينَ ما لكلِّ أمَّةٍ مِن منسكٍ، وإن كان ذبحُ المناسك وإراقةُ الدِّماءِ على اسم اللّه سبحانه وتعالى شرعًا في كلِّ أمَّة ومِلَّة، فالحجة لمن فتح: أنه أتى بالكلمة على أصلها، وما أوجبه القياس لها؛ لأنّ وجه: (فعَل يفعُل) بضمّ العين أن يأتي المصدر منه والموضع (مفعَلًا) بالفتح كقولك: (مَدخَلا ومَخرَجا، ومَنسَكا)، وما كان مفتوح العين أتى المصدر منه بالفتح، والاسم بالكسر، كقولك: (ضربت مضرَبًا، وهذا مضرِبي)، والحجة لمن كسر السين: أنّه أخذه من الموضع الَّذي تذبح فيه النسيكة، وهي: الشاة الموجَبة للّه[2].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ﴾:

اللّامُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ للتَّعليلِ، والمعنى: (شرعَ اللّهُ لكلِّ أمَّةٍ أنْ يَذْبَحوا لوجهِهِ على وجهِ التَّقرُّبِ)، وجعلَ العِلَّةَ في ذلكَ أنْ يُذكَرَ اسمُهُ - تقدَّسَتْ أسماؤُهُ - على النَّسائكِ[3]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ المقصودَ الأهمَّ مِنَ المناسكِ تذكُّرُ المعبودِ المُنعِمِ جلَّ وتباركَ[4].

التقرُّبُ إلى الله بذِكْر اسمه هو مقصدُ المناسكِ الأسمى

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿لِّيَذۡكُرُواْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾، ولم يُعبَّرْ بالمصدرِ مثلًا بأنْ يُقالَ: (لذكرِ اسمِ اللّهِ)؛ لِما تُفيدُهُ صيغةُ المضارعِ من التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فالمقصودُ أنْ يُذكَرَ اسمُ اللّهِ تعالى المُنعِمِ في كلِّ وقتٍ مِنْ أوقاتِ نَحْرِ النَّسائكِ، ويعضد هذا التَّجدُّدَ والاستمرارَ

الدَّلالةُ على تجدُّدِ الذِّكرِ واستمرارِهِ

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 274، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(2) ابن خالويه، الحجة، ص: 253.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 157، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 225.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

أنَّهُ سبحانَهُ وتعالى جعلَ النَّحرَ لوجهِهِ سنَّةً في كلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المؤمنةِ، فالتجدُّدُ هنا على مستوى كلِّ أمةٍ، وعلى مستوى كلِّ فردٍ، وعلى مستوى تجدُّد النَّحر من كلِّ فردٍ.

سرُّ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾:

تنبيهٌ على وجوبِ كونِ الذَّبحِ للتَّقرُّبِ للهِ تعالى وحدَهُ

في إضافةِ الاسمِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ تنبيهٌ على وجوبِ كونِ الذَّبحِ للتَّقرُّبِ للهِ تعالى وحدَهُ، والمعنى: (ليذكُروا اسمَ اللهِ المَلِكِ الأعلى وحدَهُ على ذبائحِهم وقرابينِهم؛ لأنَّهُ الرَّزّاقُ لهُم وحدَهُ)[1]، وعلى هذا الأساسِ حَرُمَ مِنَ الذَّبائحِ ما أُهِلَّ بهِ لغيرِ اللهِ، وطُلِبَ ذِكْرُ اسمِ اللهِ على الذَّبائحِ، حتَّى جُعِلَ ذِكْرُ اسمِ اللهِ هو الغرضَ البارزَ، وكأنَّما تُذبَحُ الذَّبيحةُ بقصدِ ذِكرِ اسمِ اللهِ.

وجهُ اختيارِ لفظِ الجلالةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الوحدانيَّةِ

اختيرَ لفظُ الجلالةِ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾، ولم يقلْ: (ليذكُروا اسمَ ربِّهم) معَ أنَّ سياقَ ذِكرِ الرِّزقِ يقتضي ذلكَ؛ لأنَّ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ أنسبُ بالتَّنصيصِ على الوحدانيَّةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وبالردِّ على المشركين في ذبحهم لآلهةٍ غيرِ اللهِ المعبودِ الحقِّ، وهم لا يُنكرون ربوبيَّته؛ فالتَّأكيدُ على الأُلوهيَّةِ والوحدانيَّةِ للهِ ﷻ مِنَ المقاصدِ الرَّئيسةِ لسورةِ الحجِّ، ولذلكَ تكرَّرَ لفظُ الجلالةِ كثيرًا في هذهِ السّورةِ، وقد جرَتِ السُّنَّةُ بذِكرِ لفظِ الجلالةِ عندَ الذَّبحِ بأنْ يُقالَ: باسمِ اللهِ، واللهُ أكبرُ، وفي ذلك تبيينٌ وتوضيحٌ عمليٌّ لما في كتابِ اللهِ من الأحكامِ.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها:

يحتملُ حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

خيريَّةُ اسمِ الله تشتمل ما ذُكِر عليه من بهيمة الأنعام

﴿ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ أنْ يكونَ للاستعلاءِ المجازيِّ مُتعلِّقًا بـ ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾[1]، معَ تقديرِ مضافٍ بعدَ ﴿عَلَىٰ﴾، والتَّقديرُ: (على إهداءِ ما رزقَهم)، أيْ: نَحْرِها أو ذَبْحِها[2]، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى لامِ التَّعليلِ[3]، والمعنى: (ليذْكُروا اسمَ اللهِ لأجلِ ما رزقَهم مِنْ بهيمةِ الأنعامِ)[4]، والوجهُ أنَّ ذِكْرَ اسمِ اللهِ عند الهَدْيِ والنَّحرِ يجعلُ الخيرَ محيطًا بما رزقَهم من بهيمة الأنعام، كأنَّه مُستعلٍ عليه ومتمكِّن منه، وهذا ترغيبٌ في التَّوحيد، وبيانٌ لعظيم امتنانِ اللهِ على عباده المؤمنين.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

بهيمةُ الأنعامِ وِعاءٌ لخيراتِ اسمِ الله

﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ موصولةٌ، والمعنى: (على الَّذي رزقَهم إيّاهُ)، و﴿مَا﴾ فيها مِنَ الإبهامِ؛ بيانُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، وفي هذا الإبهامِ مع ضميمةِ المَدِّ في الألفِ بيانُ سكونِ بركاتِ اسمِ اللهِ وجريانِها في بهيمةِ الأنعامِ، على ما يُفْهِمُهُ التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَىٰ﴾، فـ﴿مَا﴾ مؤسَّسة على ﴿عَلَىٰ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿رَزَقَهُم﴾:

الإحسانُ بالنِّعمِ واللُّفتُ إليها وجعلُ بعضِها علَّةً لبعضٍ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ جلَّ سلطانُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، ولم يُعبَّرْ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على استمرارِ الرِّزقِ، فلم يقلْ: (على ما يرزقُهم)؛ لأنَّ صيغةَ الماضي تدلُّ على تحقُّقِ الرِّزقِ وحصولِه، وأنَّ اللهَ رزقَهم بهيمةَ الأنعامِ قبلَ أنْ يتقرَّبوا بذَبْحِها إليه سبحانَهُ، وذلكَ أنسبُ بسياقِ طلبِ ذِكْرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى عندَ ذَبْحِها، ويتأكَّدُ هذا إنْ جُعِلَتْ ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى لامِ التَّعليلِ، ويعظم

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.

الامتنان، ويشتدُّ طلبُ ذِكْر اسمه تعالى عندئذٍ على جعل: ﴿عَلَىٰ﴾؛ للاستعلاء باللَّفت إلى أصل الامتنان برزقهم بهيمة الأنعام، وبامتداده والتَّرقّي فيه بجعل الخير الإلهيِّ الرَّبانيِّ الكثير في تلك البهيمة، فبينَ التَّعبير بالماضي و﴿عَلَىٰ﴾ من التَّعاضد والتَّناصر ما ترى.

معنى ﴿مِّنۢ﴾ ودلالتُها:

تشويقٌ لبهيمة الأنعام مُنطوٍ على تعظيمها وتفخيمها لِما أحاط بها البركة

﴿مِّنۢ﴾ في قولِهِ جلَّ وتبارك: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ بيانيَّةٌ لِما في اسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ مِنَ الإبهام، والمعنى: (ليذكُروا اسمَ اللهِ على الَّذي رزقَهم إيّاهُ)، وهو بهيمةُ الأنعام، وفي بناء المعنى على الإبهام أوَّلًا، والبيان ثانيًا تشويقٌ لبهيمة الأنعام مُنطوٍ على تعظيمها وتفخيمها لِما أحاط بها، وداخلَها مِن بركات اسم اللهِ ونفحاته سبحانه وبحمده وتناغيًا مع التَّذكير بالامتنان بها قبل طلب ذِكْر اسمه تعالى عليها.

فائدةُ إضافةِ ﴿بَهِيمَةِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾:

تبيينُ البهيمةِ بإضافتِها إلى الأنعامِ

إضافةُ البهيمةِ إلى الأنعام في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ للبيانِ، والمعنى: (مِنْ بهيمةٍ هي الأنعامُ)[1]؛ لأنَّ البهيمةَ أعمُّ مِنَ الأنعام، وفي هذهِ الإضافةِ تنبيهٌ على أنَّ مِنَ البهائم ما ليسَ مِنَ الأنعام، كالخيلِ والبِغالِ والحميرِ[2]، والمُرادُ أنَّ القُرْبانَ يجبُ أنْ يكونَ نَعَمًا، ولا يجوزُ أنْ يكونَ مِنْ غيرِها[3].

معنى اللّامِ في ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾:

بيانٌ لجنس الأنعامِ من الغَنَمِ والبَقَرِ والإبلِ

لامُ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ للجنسِ، والمعنى: (ليذكُروا اسمَ اللهِ على ما رزقَهم مِنْ بهيمةٍ هي جنسُ الأنعامِ مِنَ الغَنَمِ والبَقَرِ والإبلِ).

(1) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 113.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 628.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71.

نوعُ الفاءِ ومعناها في قولِهِ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾:

الفاءُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، فإنَّ جعْلَهُ تعالى لكلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ مَنْسَكًا ممّا يدلُّ على وحدانيَّتِهِ تعالى[1]، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الشّارعَ لجميعِ الشَّرائعِ الحقَّةِ واحدٌ[2]، ولو كانَتْ آلهةً كثيرةً؛ لكانَتْ لكلِّ أمَّةٍ مناسكُ متعدِّدةٌ[3]، وقيلَ: الفاءُ للتَّعليلِ، وما بعدَها علَّةٌ لتخصيصِ اسمِ اللّهِ تعالى بالذِّكرِ[4]، وقيلَ الفاءُ هي الفاءُ الفصيحةُ، وهي تُفْصِحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، والمعنى: (إذا كانَ لكلِّ أمَّةٍ مَنْسَكٌ، فاللّهُ الَّذي شرعَ المناسكَ واحدٌ، وكلُّها لعبادتِهِ والتَّقرُّبِ إليهِ)[5].

إفرادُ مَنْسكٍ كلِّ أُمَّـةٍ دليلٌ على وحدانيَّةِ الله

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

في التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ دلالةٌ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، فإنَّ وحدانيَّةَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى أمرٌ قطعيٌّ ثابتٌ لا يقبلُ النَّقْضَ ولا التَّغييرَ، لا شريكَ لهُ سبحانَهُ على الدَّوامِ والاستمرارِ.

وحـدانيَّـةُ اللـهِ مقطوعٌ بها ثابتةٌ على الدَّوام

علَّةُ تركِ التَّأكيدِ في قولِهِ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ دونَ تأكيدٍ مع أنَّ وحدانيَّةَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى ممّا ينازعُ فيهِ المشركونَ؛ لأنَّ الظّاهرَ أنَّ الخطابَ للمؤمنينَ الموحِّدينَ، وإنْ جُعِلَ الخطابُ عامًّا، فترْكُ التَّأكيدِ باعتبارِ تغليبِ المؤمنينَ على غيرِهم[6]، ولتنزيلِ المشركينَ منزلةَ غيرِ المُنْكِرِ؛ لِما يُحيطُ بهم مِن الدَّلائلِ الَّتي مِن شأنِها أن تصرفهم عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ.

براهينُ وحدانيَّةِ اللهِ تمنعُ تصوُّرَ إنكارِ المخاطَبِ لها وإنْ أنكَرَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 535.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4984.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

نكتةُ الالتفاتِ في قولِهِ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

سبحان مَن يُدبِر عنه عبادُهُ ويُقبِلُ هو عليهم!

في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ التفاتٌ بديعٌ، وهو الالتفاتُ مِنَ الغَيبةِ في الإخبارِ عنِ الأُمَمِ الماضية بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إلى الخطابِ بما معناهُ: فالإلهُ واحدٌ لجميعِكم، والأمرُ كذلكَ في الذَّبيحةِ ينبغي أنْ تُخْلَصَ لهُ جلَّ وعزَّ[1]، والسِّرُّ في هذا الالتفاتِ أنَّ الخطابَ أصرحُ وأجدرُ بالقبولِ[2]، والعدولُ إلى الخطاب يُفْهِم أن مضمون الخطاب هو المقصود مِن الكلام، والمُراد وصولُهم إليه مِن مُقدِّماتٍ له، وفي الخطاب تقريبٌ لهم وتودُّدٌ إليهم؛ تمهيدًا لذِكْر: ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فهو سبحانه يُحبُّ أن يكون هؤلاء العاصون منهم، وهذا ينزعُ، وينظرُ إلى اسم الرَّبِّ في مطلع السّور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: 1].

بلاغةُ الجمعِ بينَ الموصوفِ والصِّفةِ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

بيانُ أنَّهُ تعالى واحدٌ في ذاتِهِ وفي إلهيَّتِهِ للكلِّ

في الجمعِ بينَ الموصوفِ والصِّفةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ براعةٌ، وذلكَ أنَّهُ لمّا كانَ الإلهُ مَنْ يَحِقُّ لهُ الإلهيَّةُ بما تقرَّرَ مِنْ أوصافِهِ، لا ما سُمّي إلهًا؛ قالَ: ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾، ووصفَهُ بقولِهِ: ﴿وَٰحِدٌ﴾، أيْ: وإن اختلفَتْ فُروعُ شرائعِهِ ونسخَ بعضُها بعضًا، ولو اقتصرَ على ﴿وَٰحِدٌ﴾؛ لربَّما قالَ مُتعنِّتٌ: إنَّ المُرادَ اقتصارُنا على واحدٍ ممّا نعبدُهُ[3]، وقيلَ: إنَّما قيلَ: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ولم يُقَلْ: (واحدٌ)؛ لِما أنَّ المُرادَ بيانُ أنَّهُ تعالى واحدٌ في ذاتِهِ، كما أنَّهُ واحدٌ في إلهيَّتِهِ للكلِّ[4]، وزيادةُ التَّفصيلِ بذِكْرِ الإله الموصوف زيادةٌ في التَّقرُّبِ منهم والإقبال عليهم.

---

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 508.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَلَهُۥٓ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۚ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها من الأمرِ بالإسلامِ على وحدانيَّتِه تعالى[1]، وقيلَ: هذا التَّفريعُ مُترتِّبٌ على التَّفريعِ السّابقِ في قولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وهو المقصودُ، فوقعَ في النَّظمِ تغييرٌ بتقديمٍ وتأخيرٍ، وأصلُ النَّظمِ: فلله أسلِموا؛ لأنَّ إلهَكم إلهٌ واحدٌ[2].

الفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على مجموعِ ما قبلَها

ويجوز أن تكون الفاءُ لترتيب ما بعدها على مجموع ما قبلها مِن قولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وما ترتَّبَ عليه؛ لأنَّه ناظرٌ إلى مجموع ذلك كلِّه، والمعنى: "انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم في كلِّ ما أمر به، أو نهى عنه؛ ناسخًا كان أو لا، وإن لم تفهموا معناه، كغالب مناسك الحجِّ"[3]، وهذا المأمورُ به هو بوّابة الإخبات المذكور في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾؛ ولهذا قرن القرآنُ بينهما في آيةٍ واحدةٍ، وتفصيلُ المُخبتين لم يُؤسَّس على الوحدانيَّة فقط، بل عليها وعلى توابعها، فيكون الأمرُ بالإسلام لله مبنيًّا على اعتقاد الوحدانيَّة، وظاهرًا في توابعها.

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿فَلَهُۥٓ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى شأنُه: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۚ﴾ للتَّعديةِ، والمُرادُ بالإسلامِ الانقيادُ للهِ تعالى في جميعِ تكاليفِه، ومِنْ جملةِ ذلكَ الإخلاصُ في الذِّكرِ عندَ الذَّبحِ[4].

نكتةُ تقديمِ ﴿فَلَهُۥٓ﴾ على ﴿أَسۡلِمُواْۚ﴾:

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الأمرِ في قولِ الحقِّ جلَّ سلطانُهُ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۚ﴾ للقصرِ، أيْ: فإذا كانَ إلهُكم إلهًا واحدًا؛ فانقادوا

إفادةُ التَّقديمِ للحصرِ معَ التَّعريضِ بالمخالفين

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 152.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 225.

لهُ في جميعِ تكاليفِهِ لا لغيرِهِ، ومِنْ جملةِ ذلكَ إخلاصُكم في التَّقرُّب لهُ أو الذِّكر بأنْ تجعلوهُ لوجهِهِ خاصَّةً، ولا تَشوبوهُ بالشِّركِ[1]، وفي ذلكَ تعريضٌ بالرَّدِّ على المشركينَ الَّذينَ يتقرَّبونَ بذبائحِهم لغيرِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ[2].

غرضُ الأمرِ ﴿أَسۡلِمُواْۚ﴾:

الأمرُ للوجوبِ يُفيدُ فَرْضيَّةَ الاستسلامِ والانقيادِ للّهِ

الأمرُ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۚ﴾ للوجوبِ، وهو يُفيدُ فَرْضيَّةَ الاستسلامِ والانقيادِ للّهِ تعالى في جميعِ ما أمرَ بهِ، ونهى عنهُ، وفي جميعِ تكاليفِهِ، ووجوبَ الإخلاصِ ونَبْذِ الشِّركِ والأوثانِ، وذلكَ هو حقُّ اللّهِ على العبادِ الَّذي لا ينبغي التَّفريطُ بهِ، والقرينة على ذلك قولُه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

إعرابُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

الإخباتُ معطوفٌ على الإسلامِ لشدَّةِ العلاقة

الظّاهر أنَّ قولَهُ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ؛ لبيان طرفَي حلقة النّاجين من هول السّاعة وزلزلتها، فطرفها الأوَّل إسلامُ الوجه للّه خاصَّة، وطرفُها الثّاني الإخباتُ المذكورُ؛ ولأنَّ الإسلامَ هو منشأ الطُّمأنينة والتَّواضع اللَّذيْن هما أنسبُ شيء لحالِ الحاجِّ المُتجرِّد من المَخيط، المكشوفِ الرأسِ، الطّالب لوضع أوزارِه، وتخفيفِ آصارِه لستر عوارِه[3]، وقيلَ: هو معطوفٌ على محذوفٍ، والتَّقديرُ: (أنذرِ المُشركينَ، وبشِّرِ المؤمنينَ)[4]، وبناءً على ذلكَ يكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ، وقيلَ: هو اعتراضٌ بينَ سَوْقِ المِنَنِ[5].

تعيينُ المُخاطَبِ في قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ إذ هو المأمورُ بتبليغِ الشَّرعِ

الخطابُ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ للنَّبيِّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 152.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 64.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.

ﷺ ؛ إذ هو المأمورُ بتبليغِ الشَّرعِ، انتُقِلَ إليهِ مِنْ خطابِ الجماعةِ في قولِهِ عزَّ وتبارك: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾[1]؛ لأنَّهُ ﷺ الرَّأسُ مِنَ المأمورين، الحائزُ لِما يُمكِنُ المخلوقينَ أنْ يَصِلوا إليهِ مِنْ رُتَبِ الكمالِ، وخِلالِ الجمالِ والجلالِ[2].

غرضُ الأمرِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾:

الأمرُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ على ظاهرِهِ، وهو الوجوبُ، وبناءً عليهِ يجبُ على النَّبيِّ ﷺ أن يُبشِّرَ المؤمنينَ المُخبِتينَ؛ ليُدخِلَ الفَرَحَ والسُّرورَ على قُلوبِهم.

الأمرُ يُفيد وجوبَ إدخال الفرحِ والسُّرور على قلوب المُخبتين

بلاغةُ حذفِ المُبشَّرِ بهِ في ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾:

في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّهِ ﷺ أنْ يُبشِّرَ المُخبتينَ بِشارةً مُطلَقةً، حيثُ لم يَقُلْ: (وبشِّرِ المُخبتينَ بكذا)، وهذه البِشارةُ المُطلَقةُ أبلغُ من المُفسَّرةِ؛ لأنَّها مُرسَلَةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ، وتجعلُ الذِّهنَ يذهبُ كلَّ مذهبٍ مُمكِنٍ في تخيُّلِ ماهيَّتِها[3]، فهذا من الثواب غير المُحدَّدِ ولا المُعيَّنِ في الذِّكرِ الحكيم؛ كنايةً عن عِظَمِه وفخامته؛ لأنَّهم المُصطفَوْن المجاهدون في اللهِ حقَّ جهاده.

الإطلاقُ ليذهبَ الذِّهنُ في تقديرِ البِشارةِ كلَّ مذهبٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾:

المُرادُ بالمُخبتينَ في قولِهِ عزَّ سلطانُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: المتواضعونَ الَّذينَ لا تكبُّرَ عندَهم، وأصلُ المُخبِتِ مَنْ سَلَكَ الخَبْتَ، وهو المكانُ المُنخفِضُ، ثمَّ استُعيرَ للمتواضعِ، كأنَّهُ سَلَكَ نفسَهُ في الانخفاضِ، والمُرادُ بهم هنا المؤمنونَ؛ لأنَّ التَّواضعَ مِنْ شيمِهم، كما كانَ التَّكبُّرُ مِنْ سِماتِ المشركينَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ

الإخباتُ مُستعارٌ للتَّواضعِ أو كنايةٌ عنهُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 107، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.

عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ [غافر: 35][1]، وقيلَ: لمّا كانَ الإخباتُ مِنْ لوازمِ التَّواضعِ؛ صحَّ أنْ يُجعَلَ كنايةً عنهُ[2].

حُسْنُ خَتْمِ الآيةِ بلفظِ ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾:

خَتْمُ الكلامِ بما يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى

في خَتْمِ الآيةِ بلفظِ ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ حُسْنُ خِتامٍ، ويُسمَّى تشابهَ الأطرافِ، وهو أنْ يُختَمَ الكلامُ بما يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى، وهنا كذلكَ، فإنَّ الظّاهرَ هو الخَتْمُ بقولِهِ: (وبشِّرِ الحاجّينَ)، لكنْ بعدَ التأمُّلِ يظهرُ حُسْنُ ما ذُكِرَ؛ لأنَّ أفعالَ الحجِّ مِنْ نَزْعِ الثّيابِ، والتَّجرُّدِ عنِ المَخيطِ، وكَشْفِ الرَّأسِ، والتَّردُّدِ في تلكَ المواضعِ المُغبرَّةِ، والتَّلبُّسِ بأفعالٍ شاقَّةٍ، والاغترابِ عنِ الوَطَنِ والأحبَّةِ؛ تدلُّ على التَّواضعِ المَحْضِ والانقيادِ المُفرِطِ، وذلكَ معنى الإخباتِ[3].

نكتةُ وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ:

لإظهارِ علَّةِ البشارةِ لهؤلاءِ المخبتينَ

قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ وضعٌ للظّاهرِ موضعَ ضميرِ الغائبِ الرّاجعِ إلى المخاطَبينَ بقولِهِ سبحانه: ﴿أَسْلِمُوا۟﴾؛ فمُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (وبشِّرْهم)، أيْ: بشِّرْ - يا محمّد ﷺ - الَّذينَ أسلَموا، فعُبِّرَ بـ ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾؛ لأنَّ الإخباتَ صِفَتُهم المُستوجِبةُ للسَّعادةِ الأبَديَّةِ الحقيقةِ بأنْ يُبشَّرَ بها[4]، وعليهِ يكونُ ذِكْرُ صفةِ الإخباتِ تعليلًا لاستيجابِ التَّبشيرِ، كأنَّهُ قيلَ: وبشِّرْهم؛ لأنَّهم مُخبِتونَ، وهذا مبنيٌّ على أنَّ اللّامَ في اسمِ الفاعلِ بمعنى اسمِ الموصولِ، أيْ: وبشِّرِ الَّذينَ أخبَتوا، واسمُ الموصولِ يومِئُ إلى علَّةِ الحُكْمِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 113.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 508، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 64.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 64.

ويجوز ألّا يكون في الكلام عدولٌ، وأنَّ المُخبتين المُبَشَّرين غيرُهم، وأنَّ ذِكْر المُخبتين مِن بعد ذِكْر ضمير المخاطَبين في قوله: (فله أسلموا): ترغيبٌ في الرُّقي إلى مقام الإخبات، وهو مقام أعلى مِن مقام الإسلام له تعالى.

إعرابُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

مثلُ المُخبتينَ يتشوَّفُ إلى معرفة حالهم

يجوزُ أنْ يكونَ الموصولُ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في موضعِ جرٍّ أو نصبٍ أو رفعٍ، والنَّصبُ على المدحِ، والرَّفعُ على إضمارِ (هم)، وهو مدحٌ أيضًا[1]، وعلى الأخيرِ تكونُ هذه الآيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ استئنافًا بيانيًّا، أيْ: في جوابِ مَن سأل: مَن هم المُخبتون؟ فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بحذف صدرِ الاستئنافِ؛ لأنَّ ذِكْرَ المُخبتين مِن بعد طلب إسلام الوجه للّه تعالى، وأمْرَ نبينا ﷺ بتبشيرهم، مِمّا يعني أنَّهم من الخواصِّ: يشوِّق المتلقي لمعرفتهم، ويُحرِّكُ نفسَهُ للسُّؤال عنهم مَن هم، ويُؤنس بذلك نَظْمُ الجوابِ في آية مستقلَّة.

نكتةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾:

ذِكْـرُ اللـه من دأْبِ المُخبتين

تُستعمَلُ ﴿إِذَا﴾ في مقام الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، ولذلكَ كانَ الحُكمُ الغالبُ مَوْقِعًا لها، وفي التَّعبير بها هنا إشارةٌ إلى أنَّ ذِكْرَ المُخبتينَ للّهِ تعالى ووَجَلَ قلوبِهم منهُ أمرٌ مقطوعٌ بهِ، وفي هذا ملاءمةٌ لمقامِ مدحِ المُخبتينَ.

بلاغةُ بناءِ ﴿ذُكِرَ﴾ للمفعولِ:

الاهتمامُ بالذِّكرِ بصرفِ النَّظرِ عن الذّاكرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالذِّكرِ دونَ التفاتٍ إلى تعيينِ الذّاكرِ، فمَناطُ وجَلِ قُلوبِهم هو حصولُ ذِكْرِ اللّهِ، لا صُدورُ الذِّكرِ مِنْ ذاكرٍ مُعيَّنٍ.

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 274.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿ذُكِرَ﴾ ﴿وَجِلَتْ﴾:

مناسبةُ صيغةِ الماضي لمقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بعد ﴿إِذَا﴾ الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، وذلكَ لدلالةِ الماضي على الوقوعِ قطعًا؛ نظرًا إلى نفسِ اللَّفظِ، فيُفيدُ هنا أنَّ الذِّكْرَ والوَجَلَ مقطوعٌ بحصولِهما.

نكتةُ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ الوَجَلِ

ذُكِرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ ذِكْرِ وجَلِ قُلوبِ المُخبِتينَ مِنَ اللهِ تعالى، ولفظُ الجلالةِ أنسبُ؛ لِما يُفيدُهُ مِنَ الجلالِ والكمالِ، أي: الَّذينَ إذا ذُكِرَ الَّذي لهُ الجلالُ والجمالُ؛ وجِلَتْ قُلوبُهم[1].

نكتةُ استعمالِ الوَجَلِ دونَ مرادفاتِهِ:

الوَجَلُ هو الخوفُ الشَّديدُ

قيلَ: إنَّ الوَجَلَ هو الخوفُ الشَّديدُ[2]، ولذلكَ عُبِّرَ بهِ دونَ الخوفِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لإفادةِ زيادةِ الهَيبةِ الَّتي تعتري قُلوبَ المُخبِتينَ عندَ ذِكْرِ اللهِ تعالى، والمعنى: (الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ؛ خافَتْ قُلوبُهم خوفًا مُزعِجًا)[3]، وذلكَ لقوَّةِ يقينِهم ومراعاتِهم لربِّهم، وكأنَّهم بينَ يديهِ[4].

دلالةُ إسنادِ الوَجَلِ إلى القُلوبِ:

إسنادُ الوَجَلِ إلى القُلوبِ مجازٌ عقليٌّ

الظّاهر أنْ يُقالَ: (الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجلوا) بإسنادِ الوَجَلِ إلى جملةِ الشَّخصِ، لكنْ أُسنِدَ الوَجَلُ إلى القلبِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ على سبيلِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ القلبَ هو مَحَلُّ الوَجَلِ[5]، ومنهُ تَسْري آثارُهُ وعلاماتُهُ إلى سائرِ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 261.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 59.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 65.

الأعضاءِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الوَجَلَ الحقيقيَّ ما يَسْكُنُ القلبَ، لا ما يُظهِرُهُ صاحبُهُ على أعضائِهِ، فالإسناد يُفيد أنَّ الوجل ساكنٌ راسخٌ فيهم ينمو ويعلو، ويترقَّوْن به، وليس مَظْهرًا من مظاهرهم، وذلك أبلغُ في مدحهم، والكشف عن حقيقتهم للاهتداء بسَنَنِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الجمع وتأنيثِها ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾:

تعـدُّدُ القُـلوبِ بتعدُّدِ المُخبتينَ وهـي عظيمةٌ بما سكَنها من الوجل

عُبِّرَ عن القُلوبِ بصيغةِ جمع الكثرةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لإفادةِ كثرةِ تعدُّدِ القُلوبِ بتعدُّدِ أصحابِها المُخبتينَ المُتحدَّثِ عنهُم؛ إذ لكلِّ واحدٍ منهُم قلبٌ؛ فهؤلاء المخبتون كثيرون.

ولعلَّ إسنادَ الوجل إلى القلوب - مع ضميمة أنَّ المخبتين مُميَّزون؛ وشأنُ المُميَّز أن يُعامَلَ معاملةَ القليل؛ ولو كان كثيرًا جدًّا - يُرشد إلى أنَّ صيغةَ جمع الكثرة: (قلوب) تُفيد تعظيمَ قلوبِ المُخبتين لكونها وجِلَةً، وهذه القلوبُ كانت أرضًا خصبةً للوَجَل، وللوَجَل تأثيرٌ فيها عظيم؛ حيث رقَّت تلك القلوب، ولانَت، وخشَعَت بقوَّةٍ من خشية اللّه؛ بسبب ذِكْرِه سبحانه وتعالى، ويُصوِّر ذلك تأنيثُ القلوب بتأنيث فعلها المُسنَد إليها: ﴿وَجِلَتْ﴾.

بلاغةُ ذِكْرِ الصَّبر والصَّلاة والإنفاق وترتيبِها:

حكايةُ أحـوالِ المُخبتين

لمّا كانَ المقامُ لذِكْرِ الحجِّ، وكانَ ذلكَ مَظِنَّةً لكثرةِ الاختلاطِ الموجبِ لكثرةِ الأنكادِ، ولا سيَّما وقد كانَ أكثرُ المُخالَطينَ مشركينَ؛ لأنَّ السّورةَ مكّيةٌ؛ قيلَ على سبيلِ العطفِ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾[1]، ويدخلُ في الصَّبرِ أيضًا الصَّبرُ على مَشاقِّ الحجِّ الَّتي لا تخلو عنها مناسكُهُ[2]، والصَّبرُ على سائرِ المَشاقِّ والتَّكاليفِ والنَّوائبِ الَّتي يتعرَّضُ لها العبدُ، وهذه النّوائب تكثُر، وتتنوَّع وتتعدَّد عند مِثْلِ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296.

المُخبتين الَّذين كَمُلتِ الرِّقةُ والرَّأفة واللّين والرَّحمة - وما جرى في هذا الطّريق مِن المعنى - في قلوبهم على غيرهم من العباد، فلا يكون منهم إلّا الصَّبرُ مع كلِّ نازلةٍ، وعند كلِّ مصيبةٍ؛ حتى صاروا مِن الكاملين في الصَّبرِ الرّاسخين العريقين فيه.

ثم إنَّهم استعانوا على تحمُّلِ تلك المشاقِّ والصَّبرِ عليها بالصَّلاة، فقال: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، ثمَّ إنَّ الإنفاق من كمال لين القلوب ورقَّتها ورحمتها ورأفتها بالعباد، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، فرجع عجز الأوصاف إلى صدرها: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، فلم تكن النَّوائب حجابًا بينهم وبين الإنفاق على العباد، فهذه الصِّفة مِن تمام صفة الصَّبر أيضًا.

بلاغةُ الجمعِ بينَ ذِكْرِ اللهِ والوَجَلِ والصَّبرِ:

ملاءمةٌ للحاجِّ ومراعاةٌ للنَّظيرِ

ذكرُ الصَّبرِ والوَجَلِ وذِكْرِ اللّهِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ مُلائمٌ للحاجِّ، وفيهِ مراعاةُ النَّظيرِ، وهي جمعُ أمرٍ، وما يُناسبُهُ لا بالتَّضادِّ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمشتقِّ دونَ الفعلِ (الصّابِرينَ، المُقيمينَ):

الكاملُ إخباتًا كاملٌ صبرًا وصلاةً

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ولم يقلْ: (وصبَروا وأقاموا الصَّلاةَ) بصيغةِ الفعلِ؛ لأنَّ صيغةَ اسمِ الفاعلِ تُفيدُ الدَّوامَ والثَّباتَ[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى رُسوخِهم في الصَّبرِ، وأنَّهُ صارَ عادةً لهُم[3].

وكذلكَ الشَّأنُ بالنِّسبةِ لإقامةِ الصَّلاةِ، فإنَّ إقامتَها على الوجهِ المشروعِ والحفاظَ عليها دَيْدَنُ المؤمنِ، ومِنْ صفاتِ المُفلحينَ، ولا يُقيمُها على الوجهِ المشروعِ مع الشَّواغلِ إلّا الرّواسخُ في حُبِّها، فهُم

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 65.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 65.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.

- بسببِ تمكُّنِ حُبِّها في قُلوبِهم والخوفِ مِنَ الغفلةِ عنها - كأنَّهم دائمًا في صلاةٍ[1].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

استعلاءُ صبرِهم على ما أصابَهم

يدلُّ استعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاءِ المجازيِّ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ على أنَّ صبرَ المُخبِتينَ مُسْتَعْلٍ على المَشَقّاتِ والمصائبِ الَّتي يتعرَّضونَ لها، ومُتمكِّنٌ منها تمكُّنَ المُستعلي مِنَ المُستعلَى عليهِ، وهي مقهورةٌ تحتَ سُلطانِهِ وقوَّتِهِ، فيَرْضَوْنَ بكلِّ ما يُصيبُهم، ولا تُزَعْزِعُهم المِحَنُ والنَّوائبُ.

معنى ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

تصويرُ فخامةِ ما أصابهم وكثرته

﴿مَآ﴾ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ موصولةٌ، والمعنى: (والصّابرينَ على الَّذي أصابَهم مِنَ الكُلَفِ والمصائبِ ونحوِ ذلكَ كائنًا ما كانَ)[2]، والإبهامُ في: ﴿مَآ﴾ مع ضميمة مدِّ الألف فيها يُصوِّرُ فخامةَ ما أصابهم وكثرته.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَصَابَهُمْ﴾ دونَ غيرِهِ:

كثرةُ استعمالِ المُصيبةِ فيما يَسوءُ الإنسانَ

اختيرَ الفعلُ ﴿أَصَابَهُمْ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ دونَ غيرِهِ كأنْ يُقالَ مثلًا: (والصّابرينَ على ما نابَهم)؛ لأنَّ في الإصابةِ إنباءً عن تمكُّنِ المُصيبةِ من المُصابِ وتأثيرِها فيهِ.

وقد كَثُرَ استعمالُ القرآنِ للمُصيبةِ فيما يتعرَّضُ لهُ الإنسانُ من الأحداثِ الَّتي تستوجبُ الصَّبْرَ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: 155 - 156]، وقولِهِ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فُصِّلت: 35]، وقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغابن: 11].

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71، والبقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَصَابَهُمْ﴾:

الصَّبْرُ يكونُ بعدَ وقـوعِ المُصيبةِ وتحقُّقِها

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ وتباركَ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾؛ لأنَّ الماضيَ يدلُّ على وقوعِ الحَدَثِ، والصَّبْرُ يكونُ بعدَ وقوعِ المُصيبةِ وتحقُّقِها؛ إضافةً إلى ما في التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي مِنَ التَّخفيفِ والتَّهوينِ؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ المُصيبةَ قد وقعَتْ، وانقضَتْ، ولو عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ؛ لأفادَتْ تجدُّدَ المصائبِ واستمرارَها، وفيه أيضًا معنى تحقُّقِ وقوعِ ما يُصيبهم لا محالة؛ لأنَّ ذلك مِن شأنِ الكُمَّلِ كالمُخبتين، كما في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: 17].

نكتةُ ذِكْرِ إقامةِ الصَّلاة:

السَّفرُ مَظِنَّةُ التَّقصيرِ في إقامةِ الصَّلاةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معناهُ: (والمُقيمي الصَّلاةِ في أوقاتِها)، وذِكْرُ إقامةِ الصَّلاةِ في سياقِ مدحِ المُخبتينَ؛ لأنَّ السَّفرَ للحجِّ مَظِنَّةُ التَّقصيرِ فيها[1]، فأبانتِ الآيةُ أنَّ المُخبتينَ يُحافظونَ على الصَّلاةِ وإنْ حصلَ لهم من المَشاقِّ بأفعالِ الحجِّ وغيرِهِ ما عسى أنْ يحصلَ[2].

وفي عطفِ إقامةِ الصَّلاةِ على الصَّبْرِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاةَ ممّا يُعينُ على التَّخفيفِ مِن آلامِ المصائبِ، وقد تكرَّرَ هذا العطفُ في القرآنِ الكريمِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: 45]، وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: 153].

تعليلُ تعريفِ (المُقيمين) وحذفِ نونِه:

للكمالِ في إقامةِ الصَّلاةِ ولِشِدَّةِ تعلُّقِهم بها

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بُنِي على الإضافةِ، فوجبَ حذفُ نونِ المضافِ[3]، والمُضافُ والمُضافُ إليه كالكلمةِ الواحدةِ، ففي

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 297، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 148.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4985.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 508، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 487.

الإضافةِ معنًى لزومِهم الصلاةَ وعدمِ انفكاكِهم عنها في أغلبِ أوقاتِهم، وإذا كان من شأنهم أن يستعينوا بالصَّلاةِ في سياقِ الصَّبرِ على ما أصابَهُم، فكيف يكونُ حالُهم مع الصَّلاة في حالاتِ السَّراءِ؟ إنَّهم مُقبِلون عليها بكُلّياتهم في عظم أحوالهم وأوقاتهم حتّى كأنَّهم مُختصّون بها، وكأنَّها مُختصَّةٌ بهم، وذلك مُؤسَّسٌ على أحوالِهم الَّتي لفَت إليها السّياق مِن رُسوخِهم في الإخبات ووَجَلِ قلوبهم عند ذِكْر اللّه ممّا يتمثَّل جليًّا في إقامتهم للصَّلاة، والمناسبُ لذلك أيضًا أن تكون (أل) في قوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ للكمال بقرينة الإضافة، كما نرى هذا المعنى في ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2] من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2].

توجيهُ المُتشابه من سورة النِّساء:

الإضافةُ لشدَّةِ التَّرابط واستئنافُ النَّصبِ للمدح والتَّخصيص

وَرَدَ الوصفُ بإقامة الصَّلاة في آيةِ الحجِّ هذه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في تركيبٍ متشابهٍ، وذلك في قوله تعالى من سورة النِّساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النِّساء: 162].

وجاء في آية النِّساء على الأصل في التَّركيب من عملِ اسم الفاعل ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾ [النساء: 162] عملَ الفعل في مفعوله ﴿ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النِّساء: 162]؛ لغيابِ داعي الإضافة الَّذي وُجد في سياق سورة الحجِّ، من المدح بشدَّة ارتباطهم بالصَّلاة، فالمَقامُ في سورة النِّساء مقامُ سَوقٍ لصنوف ظلمِ اليهود، وما ارتكبوه من أنواع المعاصي المُنكَرة، ثم استدراكٍ على ما قد يُتَوهَّم من تعميم هذا الوصفِ لجميعهم، فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ

﴿إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: 162]، ثمَّ جاء خلالَ هذا الاستدراكِ تخصيصُ الوصفِ بإقامة الصَّلاة لعلوِّ شأنها ورفيع مقامها، ولِكَوْنِها زاجرةً مانعةً من المعاصي الَّتي وقع فيها أغلبُ قومهم، والتي ذُكرت قريبًا في سياق ذمِّهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، فجاء الوصفُ بإقامة الصَّلاةِ على أصل التَّركيب دون إضافة؛ لصرف الاهتمام إلى أصلِ الفعل، جنسِ الصَّلاة الَّتي تنهى عن الفحشاء والمنكرِ مع استئناف النَّصبِ على المدح والتَّخصيصِ لتمييزها من بين سائرِ الأوصاف المذكورة.

وأمّا آيةُ الحجِّ؛ فقد جاء الوصفُ فيها مجرورًا على العطف، لعدم تمييزِ مناسبتِها للسّياق من بين المعطوفات، وجاء بالإضافة للتَّنبيه على قوَّةِ ارتباط الموصوفين بالصِّفة، وشدَّةِ حرصِهم على إقامة الصَّلاة.

نكتةُ ذِكْرِ الإنفاق ﴿يُنفِقُونَ﴾:

لمّا كانَ ما يحصلُ في الحجِّ مِنْ زيادةِ النَّفقةِ وربَّما كانَ مُقعِدًا عنهُ؛ رُغِّبَ فيهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]، وهذهِ لمناسبةِ سياقِ الحديثِ عن الحجِّ؛ أمّا على عموم لفظ الآية واستقلالها بالدَّلالة؛ فمن أوصاف المُخبِتين أنَّهم يُنفقونَ ممّا رزقَهم اللّهُ في سائرِ وجوهِ الخيرِ والبرِّ.

مِن أوصافِ المُخبِتين أنَّهم يُنفقونَ ممّا رزقَهم اللهُ في وجوهِ البرِّ

معنى (مِنْ) ودلالتُها:

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ، وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ الشَّرعَ لا يطلبُ مِنَ المُنفِقِ أنْ يُنفِقَ مالَهُ كلَّهُ، وإنَّما يطلبُ منهُ إنفاقَ جزءٍ يسيرٍ منهُ، والمعنى: (وبعضَ الَّذي رزَقْناهم ينفقونَ)، وفيهِ إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ

الإنفاقُ من بعضِ ما رزقَ اللهُ عبادَه

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49.

العبدَ المؤمنَ قد يَصِلُ إلى مرتبةِ الإخباتِ بإنفاقِ بعضِ مالِهِ، ولا يُشترطُ أنْ يُنفِقَ مالَهُ كلَّهُ ليصلَ إليها.

وقد تكونُ (مِن) ابتدائيَّةً؛ لاستحضار المُخبِتين على الدَّوام بأنَّ ما بأيديهم من الأموال رزقٌ وهِبةٌ من الله، وأنَّ اللهَ يُخلِفُ ما أنفقوا منه، أو لتذكير المخاطَبين بذلك؛ للحثِّ على الإنفاق، فقد يزيد الإنفاقُ على حدِّ التَّبعيض حتّى يبلُغَ رُتبَةَ إخراجِ المالِ كلِّه، كما ثبت عن أبي بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه[1].

أو تكون (من) باقيةً على التَّبعيض ولا اعتراض، باعتبار تنوُّعِ الأرزاق وكثرتِها، وأنَّ الإنفاقَ لا يكونُ أبدًا إلّا من بعضِها.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

تحقيقُ كونِ الرِّزقِ مِنَ اللهِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ آلاؤُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ على أنَّ المالَ الَّذي يُنفِقُهُ المُخبِتونَ في وجوهِ الخيرِ والبرِّ ممّا ثبتَ، وتحقَّقَ كونُ مصدرِهِ مِنَ اللهِ ﷻ مالكِ المُلْكِ ذي الجلالِ والإكرامِ، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على مقابلةِ الإحسانِ بالإحسانِ.

نكتةُ الإسنادِ إلى نونِ العظَمةِ ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

تعظيمُ شأنِ الرِّزقِ ببيانِ كونِهِ صادرًا من اللهِ تعالى

أُسنِدَ ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (وممّا رُزِقوا يُنفِقونَ)؛ لتعظيمِ شأنِ الرِّزقِ ببيانِ كونِهِ صادرًا من الكريمِ الوهّابِ سبحانَهُ وتعالى الَّذي جعلَهُ سببًا لاستقامةِ عيشِ النّاسِ، ولتقويةِ داعي الامتثالِ، والمعنى: (المُخبِتونَ لكونِ الرِّزقِ نِعْمةً منّا، لا يبخلونَ بهِ، ولأجلِ عظَمتِنا يُحسِنونَ الظَّنَّ بأنّا نُخْلِفُ عليهم ما يُنفِقونَ)[2].

نكتةُ تأخيرِ الفعلِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

قُدِّمَ قولُهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ على قولِهِ: ﴿يُنفِقُونَ﴾؛

(1) أبو داود، السُّنن، ص: 1678، والتّرمذي، السّنن، ص: 3675.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49.

بيانُ أنَّ الإنفاقَ ممّا رزقَهم اللهُ وحدَهُ

لبيانِ أنَّ الإنفاقَ ممّا رزقَهم اللّهُ وحدَهُ، فليسَ مِنْ جهودِهم ولا أعمالِهم، ولكنْ مِنْ توفيقِ اللّهِ، ومِنْ رِزْقِهِ الَّذي رزقَهُ إيّاهم[1]، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في الحثِّ على الامتثالِ بتعجيلِ ذِكْرِ المُنفَقِ منهُ، ويُفيد التَّقديم والتَّأخير أيضًا أنَّ إنفاقَهم مُؤسَّسٌ على فقههم أنَّ الرّازق هو اللّه، وأنَّ الرِّزق نعمةٌ عظيمةٌ، فكيف يكون إنفاقهم كمًّا وكيفًا؟ يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تأخيرِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها وما بعدَها.

دلالةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

استمرارُ الإنفاقِ وتجدُّدُهُ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الإنفاقِ وتجدُّدِهِ، أيْ: يُجدِّدونَ الإنفاقَ على الاستمرارِ؛ إحسانًا إلى خلقِ اللّهِ وامتثالًا لأمرِهِ، كالخَبْتِ الباذلِ لِما يودِعُهُ اللّهُ تعالى فيهِ مِنَ الماءِ والمَرْعَى[2]، أيْ: كُلَّما تجدَّد لهم وفرةُ مالٍ؛ أنفقوا، وهذه حالُ أهل أدنى مراتب الإخبات، وكلَّما تجدَّد لهم أصلُ مالٍ؛ أنفقوا، وهذه حالُ أهل أعلى مراتب الإخبات الَّذين يُجدِّدونَ الخروجَ مِن جميعِ مالهم.

بلاغةُ العُدولِ إلى الفعلِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

إفادةُ التَّجدُّدِ ومراعاةُ تلاؤمِ الفواصلِ

الظّاهر أنْ يُعَبَّرَ باسمِ الفاعلِ: (والمُنفقينَ ممّا رزقْناهم)؛ ليوافقَ ما سبقَ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لإفادةِ التَّجدُّدِ - فإنَّ المالَ قد لا يتوافر لهم على الثُّبوت والاستمرار والدَّوام - ولمراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4986.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوَجَل والخَوْف:

الخَوْفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[1]، والوَجَلُ: الخوفُ الشَّديدُ[2]، وقيلَ: هو استشعارُ الخوفِ، يُقالُ: وجِلَ يَوْجَلُ وجَلًا، فهو وجِلٌ[3].

الـــوَجَـــلُ هو الخَوْفُ الشَّديدُ أو استـشـعـارُ الخَوْفِ

الإخبات والخُضوع:

الفرقُ بينَ الإخباتِ والخُضوعِ: أنَّ المُخبِتَ هو المُطمئِنُّ بالإيمانِ، وقيلَ: هو المجتهدُ بالعِبادةِ، وقيلَ: المُلازمُ للطّاعةِ والسُّكونِ، وهو للمدحِ، مِثلُ المؤمنِ والمتَّقي، وأمّا الخُضوعُ؛ فقد يكونُ مدحًا، وقد يكونُ ذمًّا، وأصلُ الإخباتِ أنْ يصيرَ إلى خَبْتٍ، يُقالُ: أخبَتَ؛ إذا صارَ إلى خَبْتٍ، وهو الأرضُ المستويةُ الواسعةُ، فالإخباتُ بحسَبِ الاشتقاقِ هو الخُضوعُ المُستمِرُّ على استواءٍ[4].

الإخـبـاتُ صفةُ مدحٍ والخُضوعُ قد يكونُ مدحًا وذمًّا

(1) الرَّاغب، المُفردات: (خوف).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 261.
(3) الرَّاغب، المُفردات: (وجل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 25.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»